تحقيق النصوص عند قدماء المسلمين

التراث العربي كنز من كنوز الأمة، وهو مصدر عزها ومجدها في الحاضر والمستقبل، كما كان في حقبة من الماضي؛ فالتطور المدني والتقدم الحضاري المرجو حصوله، لابد أن تسبقه نهضة علمية قوية تبين الطريق وتضع العلامات والمنارات لسالكيه، والنهضة العلمية لا تأتي إلا بمعرفة ودراسة الإرث القديم، الذي هو ذاكرة الأمة، والأمة التي لا ذاكرة لها لا مستقبل لها.

وإن إعادة فطر المنبع الصافي للأمة، وإزالة ما عسى أن يكون علق به من شوائب، لهما من الصعوبة بمكان في ظل هذه الأحوال الحالكة الظلمة. وكذلك فإن إعادة إخراج تراثنا العربي على الوجه الذي يليق به لهي من أصعب المهام، ولذلك كان المتصدر لها من المتحملين على عاتقهم حملا ثقيلا، ولابد له من التأهل لهذه المهمة، وإن علم تحقيق النصوص بما فيه من قواعد وسبل ومناهج لهو الأليق والأقدر على التأهيل الكافي للقيام بهذه المهمة.

وقد قام كثير من العلماء ببذل جهود كبيرة مضنية في وضع القواعد والمناهج لتحقيق النصوص، فمنها المتأخر والحديث، ومنها المقل والمستكثر، كل بحسب تجربته وخبرته في مجال تحقيق النصوص، والغرض من هذا البحث هو إظهار بعض ملامح منهج الأجداد في تحقيق النصوص، وأن أسلافنا، رحمهم الله تعالى، وفي مقدمتهم علماء الحديث، قد عرفوا وأرسوا كثيرا من قواعد تحقيق النصوص في ممارستهم العملية.

فما يعرفه المعاصرون من جمع نسخ الكتاب، وترتيبها، ومقابلتها، وإثبات فروق القراءات، مرورا بتوثيق نسبته، وضبط عباراته، والتعليق عليها، وتخريج نصوصه، وانتهاء بتكشيف وفهرسة محتوياته، فكل هذا وغيره قد سبق أسلافنا إلى

Scanned by CamScanner

معرفته وتطبيقه، بحسب احتياجهم إليه في أعمالهم العلمية المختلفة. وسأقوم بذكر عشرة نماذج من أعمالهم تشهد على ذلك.

النموذج الأول: صحيح البخاري
عناية القدماء بالنص، واختيار أصل موثوق به، والاهتمام بالمقابلة وفروق نسخ الكتاب وضبطه:

أخرج اليونيني (ت:٧٠١هـ)، حافظ دمشق المشهور، في القرن السابع للهجرة صحيح البخاري، ومما دفعه إلى ذلك أن ابن مالك النحوي (ت:٦٧٢هـ) هاجر من الأندلس واستقر في دمشق، فاتفق معه على أن يخرج صحيح البخاري تحت سمعه وأمام بصره، ولم يكتف اليونيني في إخراجه بنسخة واحدة موثوقة، وإنما جمع أوثق النسخ، واختار أصلا لتحقيقه نسخة كانت موقوفة بإحدى مدارس القاهرة، وقابلها على أصل مسموع للحافظ أبي ذر الهروي، وأصل ثان مسموع للحافظ أبي محمد الأصيلي، وأصل ثالث مسموع للحافظ أبي القاسم بن عساكر الدمشقي، وأصل رابع مسموع على الشيخ أبي الوقت بقراءة السمعاني وغيره من كبار الحفاظ، ونهض بهذا العمل في واحد وسبعين مجلسا، وكان بجواره فيها ابن مالك يراجع ويصحح، وأمامه جماعة يسمعون منه وينظرون في نسخ معتمدة من الكتاب، حتى تم إخراجه إخراجا دقيقا، وانتشرت فروع نسخته في العالم الإسلامي، وذاعت نسخة فرعية منها عالية النسبة، وهي بخط ابن مالك، الذي سجل على أول ورقة من الجزء الأخير بسماعه لها من اليونيني، قال: سمعت ما تضمنه هذا المجلد من صحيح البخاري ﷺ بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتقن شرف الدين أبي الحسين علي بن محمد ابن أحمد اليونيني ﷺ وعن سلفه، وكان السماع بحضرة جماعة من الفضلاء، ناظرين في نسخ معتمد عليها، فكلما مر بهم لفظ ذو إشكال بينت فيه الصواب وضبط على ما اقتضاه علمي بالعربية، وما افتقر إلى بسط عبارة وإقامة دلالة أخرت أمره إلى جزء أستوفي فيه الكلام مما يحتاج إليه من نظير وشاهد، ليكون الانتفاع به عاما، والبيان تاما إن شاء الله تعالى، وكتبه محمد بن عبدالله بن مالك حامدا الله تعالى، وكتب الحافظ اليونيني على ظهر آخر ورقة من المجلد نفسه: بلغت مقابلة وتصحيحا وإسماعا بين يدي شيخنا شيخ الإسلام، حجة العرب، مالك أزمة الأدب، العلامة أبي عبدالله بن مالك الطائي الجياني أمد الله تعالى عمره في المجلس الحادي والسبعين، وهو يراعي قراطي، ويلاحظ نطقي، فما اختاره ورجحه وأمر بإصلاحه، أصلحته وصححت عليه، وما ذكر أنه يجوز فيه إعرابان أو ثلاثة كتبت عليه معا فاعلمت ذلك على ما أمر ورجح، وأنا أقابل بأصل الحافظ أبي ذر، والحافظ أبي محمد الأصيلي، والحافظ أبي القاسم الدمشقي، ما خلا الجزء الثالث عشر والثالث والثلاثين فإنهما معدومان، وبأصل مسموع على الشيخ أبي الوقت بقراءة الحافظ أبي منصور السمعاني وغيره من الحفاظ، وهو وقف بخانقاه السمياطي، وعلامات ما وافقت أبا ذر (هـ)، والأصيلي (ص)، والدمشقي (ش)، وأبا الوقت (ط)، فليعلم ذلك، وقد ذكرت ذلك في أول الكتاب في فرجة لتعلم الرموز. كتبه علي بن محمد الهاشمي اليونيني عفا الله عنه[٦].

النموذج الثاني: كتاب «الياقوت»
اهتمام القدماء بكتبهم ومعارضتها:

لما صنف محمد بن عبدالواحد أبو عمر اللغوي الزاهد، المعروف بغلام ثعلب (ت:٣٤٥هـ) كتابه «الياقوت» في اللغة، زاد فيه مرة بعد مرة، وكان قد ابتدأ بإملائه يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ست وعشرين وثلاثمئة ارتجالاً من غير كتاب، ومضى في الإملاء مجلسا مجلسا إلى أن انتهى إلى آخره، وأخذ تلاميذه يقرأونه عليه، وهو يزيد وينقح فيه، واختار نسخة تلميذه أبي إسحاق الطبري لتكون أساسا فقرأه عليه وسمعه الناس، ثم زاد فيه بعد ذلك زيادة كثيرة، والتلاميذ بين يديه يراجعون نسخهم ويدخلون عليها ما يضيفه أو يصححه، ثم زاد عليه زيادات أخرى، وفي المرة السادسة جمع تلاميذه في يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمئة، واختار من بينهم أبا إسحاق الطبري، ليقرأ نسخته التي كان قد حررها، والناس من حوله يسمعون ويعارضون على نسخته نسخهم، وأعلن أبو عمر الزاهد أن هذه هي العرضة الأخيرة لكتابه، وأملى عليهم: هذه العرضة هي التي تفرد بها أبو إسحاق الطبري آخر عرضة أسمعها بعده، فمن روى عني في هذه النسخة وهذه العرضة حرفا واحدا وليس هو من قولي فهو كذاب علي، وهي من الساعة إلى الساعة من قراءة أبي إسحاق على سائر الناس وأنا أسمعها حرفا حرفا[٧].

Scanned by CamScanner

النموذج الثالث: كتاب «العين»

حرص القدماء على توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه:

شك القدماء في نسبة كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٠هـ)، فدرسوا أسانيده ورواته، وراوا أن مؤلفه يروي عن الأصمعي وابن الأعرابي، وهما متأخران عنه، وفحصوا مادة متنه، ولاحظوا اختلاف نسخه المتداولة، وكثرة الخلل والفساد فيه، وكان السيرافي (ت:٣٦٨هـ) قد قال عنه عبارة ترفع عن الخليل ما لوحظ عليه: وعمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذي به بدأ ضبط اللغة[٣]. وقال الزبيدي الإشبيلي (ت:٣٧٩هـ): ونحن نرى بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه، أو التعرض للمقاومة له والرد عليه، بل نقول: إن الكتاب لا يصح له ولا يثبت عنه، فقد كان جلة البصريين الذين أخذوا عن أصحابه، وحملوا علمه عن رواته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه، إذ لم يرد إلا عن رجل واحد غير مشهور في أصحابه، وأكبر الظن فيه أن الخليل سبب أصله، ورام تأليف كلام العرب فيه، ثم هلك عنه قبل كماله، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه، فكان ذلك سبب الخلل الواقع به، والخطأ الموجود فيه، والله أعلم[٤]. وقد ذكر السيوطي (ت:٩١١هـ) الآراء المختلفة التي قيلت في نسبة العين إلى الخليل في كتابه المزهر[٥].

النموذج الرابع

حرص القدماء على تتبع المصادر، والمقابلة بين النسخ:

من ذلك ما قام به ابن خلكان (ت:٦٨١هـ) في ترجمة الحميدي الميورقي الأندلسي، لتحديد تاريخ وفاته الصحيح، فقد قال ابن خلكان في ترجمته: وتوفي ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ببغداد، وقال السمعاني في كتاب «الأنساب» في ترجمة الميورقي: إنه توفي في صفر سنة إحدى وتسعين وأربعمئة رحمه الله تعالى، هكذا وجدته في المختصر الذي اختصره أبو الحسن علي بن الأثير الجزري -المقدم ذكره- وكشفت عنه عدة نسخ فوجدته على هذه الصورة؛ لأني توهمت الغلط في نسختي، ولم أقدر على مراجعة الأصل الذي لابن السمعاني الذي هذا المختصر منه؛ لأنه لا يوجد في هذه البلاد، وبقي في نفسي شيء من التفاوت بين التاريخين فإنه كبير. ثم إني كشفت كتاب «الذيل» للسمعاني فوجدت فيه أن الحميدي المذكور توفي ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمئة، ودفن من الغد في مقبرة باب أبرز بالقرب من قبر الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وصلى عليه أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي الفقيه في جامع القصر، ثم نقل بعد ذلك في صفر سنة إحدى وتسعين وأربعمئة إلى مقبرة باب حرب، ودفن عند قبر بشر بن الحارث المعروف بالحافي رحمه الله تعالى. فلما وقفت في الذيل على هذه الصورة علمت أن الغلط وقع من ابن الأثير في المختصر؛ إما لأن النسخة التي اختصرها كانت غلطا من الناسخ فتبع ابن الأثير ذلك الغلط ولم يكشفه من موضع آخر، أو لأنه عبر من سطر إلى سطر كما جرت عادة النساخ في بعض الأوقات، والله أعلم أي ذلك كان[٦].

النموذج الخامس

اهتمام القدماء بجمع نسخ الدواوين، والمقابلة بينها:

قال أبو العلاء المعري (ت:٤٤٩هـ) عن البيت الذي يقول:

هي الخمر تكنى الطلاء
كما الذئب يكنى أبا جعدة

قال: وهو ينسب إلى عبيد بن الأبرص، وربما وجد في النسخة من ديوانه، وليس في كل النسخ، والذي أذهب إليه أن هذا البيت قيل في الإسلام عندما حرمت الخمر[٧].

النموذج السادس

اهتمام القدماء بمعرفة أصح النسخ:

قال ياقوت الحموي (ت:٦٢٦هـ) في ترجمة المفضل الضبي، عند الكلام عن تصانيفه، وأن منها: المفضليات، وهي أشعار مختارة جمعها للمهدي، وفي بعض نسخها زيادة ونقص، وأصحها التي رواها عنه أبو عبدالله بن الأعرابي[٨].

النموذج السابع

حرص القدماء على ضرورة احترام النص، وعدم الإقدام على تصحيح ما فيه من الخطأ، إلا إذا تبين وجه الصواب فيه:

عندما أنشد الثعالبي (ت:٤٢٩هـ) لابن العميد قصيدة، وفيها هذا البيت:

أهديت نبرمة أهدت لآكلها
كرب المطامير في آب وتموز

قال: نبرمة، هكذا في النسخة، ولست أعرفها، وأظن أنها شيء يجمع من الحبوب، ويدق، ويعجن بحلاوة[٩].

Scanned by CamScanner

النموذج الثامن

اهتمام القدماء بالمقابلة بين النسخ لمعرفة القراءة الصحيحة:

لما أراد الذهبي (ت:٧٤٨هـ) التأكد من مساحة بغداد، رجع إلى نسختين من كتاب ابن طاهر بروايتين مختلفتين، قال: قال الصولي: قال أحمد بن أبي طاهر: ذرع بغداد يعني الجديدة، قال: ذرع الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب، وفي نسخة أخرى من غير رواية الصولي: إنها من الجانبين ثلاثة وأربعون ألف جريب وسبعمئة[١١].

وما قام به أيضا في ترجمة أحمد ابن بويه، فإنه لما نقل نسب آل بويه عن ابن خلكان، قال: كذا ساق نسبه القاضي شمس الدين وعد ما بينه وبين بهرام ثلاثة عشر أبا، وقابلته على نسختين[١٢].

النموذج التاسع

اهتمام القدماء بالمقابلة بين النسخ وتخريج النص... الخ:

منه ما قام به عبدالقادر البغدادي (ت:١٠٩٣هـ) في كتابه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»؛ فهو يقابل بين النسخ، ويجتهد في تخريج النص، ويترجم للعلماء والشعراء تراجم وافية، ويكمل أبيات الشعر ويخرجها، وينسب الأبيات المجهولة، ويشير إلى اختلاف الروايات في البيت الواحد، وغير ذلك مما ينادي به علماء هذا الفن في العصر الحديث[١٣].

فمن الأمثلة على المقابلة بين النسخ؛ لما أنشد:

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته

فقام بفأس بين وصليك جازر

قال: «بلالا» ينبغي أن يكون بالرفع؛ لأنه بدل من «ابن» أو عطف بيان له. وقد رأيته مرفوعا في نسختين صحيحتين من إيضاح الشعر لأبي علي الفارسي، إحداهما بخط أبي الفتح عثمان بن جني[١٤].

ومن الأمثلة على الاجتهاد في تخريج النص: لما ذكر قول ابن خلف: وقد قيل: إنه يجوز أن يكون «أسهل» اسما لموضع بعينه.

قال: قد فتشت كتب اللغة، وكتب أسماء الأماكن؛ كمعجم ما استعجم، ومعجم البلدان، فلم أجد له ذكرا فيها[١٥].

ومن الأمثلة على تراجم العلماء والشعراء: وأبو حنيفة الدينوري هو أحمد بن داود بن ونند، أخذ عن البصريين والكوفيين، وأكثر أخذه عن ابن السكيت، وكان نحويا لغويا مهندسا منجما حاسبا راوية ثقة فيما يرويه ويحكيه، مات في جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ومئتين[١٦].

ومن الأمثلة على تكميل الأبيات وتخريجها: وأنشد: هم درج السيول، هو قطعة من بيت، وهو:

أنصب للمنية يعتريهم

رجالي أم هم درج السيول

... وهذا البيت لإبراهيم بن هرمة، يبكي به قومه لكثرة من فقد منهم[١٧].

ومن الأمثلة على نسبة الأبيات المجهولة:

يقول الخنى وابغض العجم ناطقا

إلى ربنا صوت الحمار اليجدع

... وهذا البيت ثاني أبيات سبعة أوردها أبو زيد في نوادره لذي الخرق الطهوي[١٨].

النموذج العاشر

اهتمام القدماء بعمل كشافات للنصوص:

استخرج مجد الدين ابن الأثير (ت:٦٠٦هـ) في كتابه «جامع الأصول في أحاديث الرسول» من الأحاديث كلمات ومعاني، قال عنها: تعرف بها الأحاديث، وأفردت لها في آخر الكتاب بابا أثبت فيه تلك المعاني، مرتبة على حروف (أ ب ت ث) مسطور في هامش الكتاب، وبإزائها ذكر موضعها من أبواب الكتاب، فإذا طلبت حديثا فيه نوع اشتباه، وغاب عنك موضعه، إما لسهو عارض، أو جهل بالمكان، فلا يخلو أن تعرف منه بعض ألفاظه المشهورة فيه، أو معانيه المودعة في مطاويه، فاعمد إلى ذلك الباب المشار إليه، واطلب تلك الكلمة، أو ذلك المعنى في حروف ذلك الباب، فإذا وجدتها فرأت ما بإزائها فهو يدلك على موضع ذلك الحديث من أبواب الكتاب، إن شاء الله تعالى[١٩]. وقد بلغت هذه الكلمات حوالي ١٤٠٠ كلمة.

وصنع ابن الأثير كشافا آخر بأسماء كل من ذكروا في الكتاب بشكل صريح أو غير صريح، رجالا ونساء، وشمل الأسماء والكنى والأبناء والألقاب والأنساب[٢٠].

الهوامش

١- صحيح البخاري، ١/٣، ٤.
٢- الفهرست، ص١١٣-١١٤.
٣- أخبار النحويين البصريين، ص٣٠.
٤- مختصر العين، ص٨.
٥- المزهر في علوم اللغة، ١/٦١-٧١.
٦- وفيات الأعيان، ٤/٢٨٣-٢٨٤.
٧- رسالة الغفران، ص١٧٦.
٨- معجم الأدباء، ٦/٢٧١٢.
٩- يتيمة الدهر، ٣/١٧١.
١٠- تاريخ الإسلام، ٩/٢٥.
١١- تاريخ الإسلام، ٢٦/١٣٩.
١٢- مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، ص٥٠-٥٣.
١٣- خزانة الأدب، ٣/٢٢، ٢٣.
١٤- خزانة الأدب، ٣/٩١٦.
١٥- خزانة الأدب، ١/٧١.
١٦- خزانة الأدب، ١/٤٠٤، ٤٠٥.
١٧- خزانة الأدب، ١/٥٠، ٥٤.
١٨- جامع الأصول في أحاديث الرسول، ١/٦٨.
١٩- تكشيف نصوص التراث العربي والأجنبي، ص٥٨-٦٠.

Scanned by CamScanner